مختارات من فنون عمارة المساجد المبكرة في شمال إفريقيا

د. رمضان البشير المهدي
عضو هيئة التدريس بكلية الفنون والإعلام

تأتي بداية فن المعمار العربي الإسلامي مع بدء الدعوة الإسلامية، حيث أكّد القرآن الكريم في أكثر من آية على ناحيتي الجمال والزينة في المخلوقات، وأشار إلى الوسيلة التي توصّلُ الإنسان المؤمن إلى تهذيب الخُلُق، حتى يصل إلى حبِّ الخير وتهذيب الذوق.

والفنون الإسلامية بعامة، وفن العمارة بخاصة، كلها لا تخالف الدين من قريب أو بعيد، بل هي بعض مستلزمات الدين، كبناء المساجد وتزيينها، واتخاذ الأثاث والرِّياش لها، ومما يؤكد ذلك أن النبي محمدًا ﷺ بنى أول مسجد في المدينة المنورة، وهي أيضا — أي العمارة الإسلامية — من مستلزمات القوة المادية، التي أمر بها الدين، كبناء القلاع والحُصُون،

والمدارس، ودُور التكايا، وغيرها من المباني الدنيوية[1].

وفن العمارة الإسلامية جدير بالبحث والدراسة، وخاصة من ناحية العلاقات التشكيلية؛ العضوية والتجسيمية، وفن إقامتها، وعلاقات الفراغ والشكل العام للأجسام البنائية.

كما يرى الباحث أنه توجد علاقة إنسانية للفنان المعماري وعلاقته ببيئته، التي تعتبر مسكنه ومسجده جزءا لا يتجزأ منها ومن روحه التي صاغتها معطيات تلك البيئة، التي عاش فيها مؤثرًا ومتأثرًا بطقوسها الإلهية.

والباحث يجد في ذلك ما يشده فعلاً إلى التحليل النفسي والروحي المرتبط بفن العمارة العربية الإسلامية، وبروح الذين قاموا بها، ووظّفوها حسب متطلبات الحياة الروحية والدنيوية، وفي هذا الأثر والتأثير يشير الباحث إلى ما كتبه أحد الباحثين في هذا المجال حيث قال: «فهذه الصحراوات برمالها المنبسطة، وتربتها المنفسحة، وأرضها الجرداء، التي لا ينبض فيها لا نبات ولا ماء، وبسمائها الصافية، وبشمسها اللافحة نهارًا، وبهلالها ونجومها المتألقة ليلاً — قد أذكت الفكر، فنشطت علوم الفلك والرياضة، كما أضفت على روح الفنان العربي أثرًا أيّما أثر، فأثارت وجدانه وألهمته أن يحكيه فيما يبدع، وأن يطبع به ما يحسه، من أجل ذلك جاءت العمارة تحكي ما يقع عليه البصر في الأرض، وما يمتد إليه الطَرْف في السماء. فكانت تلك الأهلّة التي توّجت المآذن، ثم كانت تلك القباب التي تحكي قبة السماء، وكان للرياح الساخنة المحملة بالرمال الحارقة أثرها في إنشار الدُّور والمساكن، فأحيطت بجدران صَمَّاء، تحميها نفثات ذلك

1) أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، 1977ف، ص 3.

الحريق. عليه، تركتْ صحونها مكشوفة عارية من السقوف، كي تصل قاطنيها بتلك السماء، التي كان البدوي يفزع إليها طلبا للقوة، وهربًا من الوحشة، فلم يشأ أن يحجب ما بينه وبين مأوى روحه، إذ كان يعدّ تلك الفرجة في سقف داره مَعْبره إلى السماء، أو جزءًا من السماء قد شدّه إلى بيته »(2).

وعلى ذلك فإن الباحث يرى أنه قد تأكد ذلك في بداية العمارة الإسلامية، حيث كان المسجد في أول تصميمه عبارة عن مسطّح من الأرض مسوّرًا غير مسقوف، ولم يكن ثمة ما يحجب نظر المصلين إلى السماء، حتى إذا تطلب الأمر تغطية مكان الصلاة في المسجد اتقاء حرارة الشمس، أو لِمَا يحدث عند تقلبات العوامل الجوية، حرص المعماري العربي على أن تكون نظرته والمصلين إلى السماء غير محجوبة، فشطر المُسَطّح إلى قسمين، أحدهما مسقوف للصلاة، والآخر مكشوف، وهو ما عُرِف فيما بعد بالصحن.

وهذا تأكيد آخر يأتي مؤكدًا فلسفة وضرورة وجود القباب، والعرائس، والمآذن الشاهقة، التي تشير إلى السماء إلى العلو، تعويضًا لإحساس المصلي وعدم انفصاله عن السماء، حتى في داخل بيت الصلاة؛ حيث صممت القباب ذات التجويف العالي.

وكذلك كان الفن المعماري الإسلامي يرتكز في أول نشأته على العناصر المعمارية والزخرفية التي تتفق وروحانيته، فخرجت منجزاته تكاد

2) ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف بمصر، 1981ف، ص 14.

تشبه بعضها بعضًا في سائر البلاد العربية والإسلامية، مع شيء من التباين اليسير، الذي تحمله كل بيئة، وتختص به وتمليه مواهب أهلها الموروثة، إنشاء وعمارةً وخبرة وغيرها.

وقد حمل فن العمارة العربية في ظل الإسلام تعبيرًا معماريًّا جديدًا، إذ ربط هذا الفن المعماري بين المسجد والكعبة المكرّمة، والتعبير الفني المعماري الأوّل الذي أحسه ساكن البادية من صلته بالسماء من خلال صحن داره المكشوف، مع التعبير المعماري الجديد المستوحى من صلة العابد بالأرض.

ومع تقدم التحضر، وهجر العرب للبادية، واستيطانهم المدن، وانتشار الإسلام بين الأمم ذات الحضارة والتقدم العمراني، مثل حضارة الفرس والعراق، نشأ فنٌّ معماري ديني حضري للجوامع والمساجد والمدارس والتكايا والرُّبُط وغيرها من الأبنية الدينية والدنيوية.

والفن المعماري الإسلامي مع هذا الذي جدّ عليه، لم يستطع أن يتخلص من التأثيرات الأولى ببيئته الصحراوية، فجاء فنًّا يجمع بين جديده الذي أفاده من المدن المتحضرة، وبين قديمه الذي علِق به من آثار البيئة الصحراوية.

لقد مرت على العمارة عصور وأجيال، وهي وقف على الحجر والصخر، وعلى المواد التي وجدها الإنسان حوله في الطبيعة، وعرف الإنسان كيف يستغل تلك المواد استغلالا صحيحًا، فظهرت العقود والقِباب والقبوات، كلها نشأت على أساس علمي إنشائي صحيح، ثم وَجَّه الإنسان همّه إلى إخفاء تلك الأحجار الصلبة تحت رداء من الزخارف والحليات والكرانيش بطبقات من البياض، فخرجت العمارة من يد الفنان

المعماري إلى يد الفنان النحّات والنقّاش المزخرف[3].

كانت عمارة المساجد أهم ما بناه المسلمون من الأبنية، فالفنُّ الإسلامي إنما نشأ فيها في الواقع، والمسجد أهم مكان تتمثل فيه العمارة الإسلامية والفن الإسلامي معًا، ولقد ظهر على المساجد الأولى البساطة في البناء، ثم أخذ المسلمون يعتنون بها، فيوسّعون مساحتها، ويبنونها بالحجارة والأعمدة، ويزينونها لتلائم ما وصلوا إليه من فنٍّ وقوة سعة.

وبدأت عمارة المساجد بأول مسجد بناه النبي محمد ﷺ مسجد «قُباء»، في العام الأول للهجرة، في المدينة، الذي لا يتجاوز باحة مربّعة، تحيط به الجدران المبنية بالطوب والحجارة، يرتكز سقفه المصنوع من الجريد والأغصان على جذوع النخيل، ثم بُنِيَ المسجد الثاني في مدينة الكوفة بعد سبعة عشر عامًا، ورُفِع سقفه على أعمدة من الرخام، أُخِذَت من أنقاض بعض القصور، ثم توالت بناء المساجد في الجزيرة العربية والممالك المفتوحة، وكانت مساجد الحجاز النموذج الذي تحاكيه مساجد البلدان الأخرى، وساعد على ذلك مجيء الحُجّاج في كل عام إلى مكة والمدينة، أو خروج الدعاة الفاتحين شرقًا وغربًا، وقد أُدخِل على بناء المسجد — في عهد الرسول محمد ﷺ- المِنْبَر، ليقف عليه أثناء الخطبة، ثم أُدخِل على عمارة المسجد زيادات أخرى مع الزمن، فاتخذت المآذن لأول مرة في دمشق، حين أذّن المسلمون فيها للصلاة من أبراج المعبد الوثني القديم، الذي قام على أنقاضه المسجد الأموي، وأقيمت مآذن في مسجد عمرو في الفُسْطاط، بأمر من معاوية، ثم اتُّخِذَ المحراب المجوّف للإمام في الصلاة، للدلالة على القبلة،

3) توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، 1970ف. 3/3.

وأول محراب كان في مسجد المدينة، ثم في مسجد الفُسْطاط بمصر، ثم في دمشق، وعَمّ بعد ذلك، ثم أدخلتْ الإيوانات، وهي الأروقة التي تحيط بصحن المسجد، ولها أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم. (انظر الصورة، شكل 1).

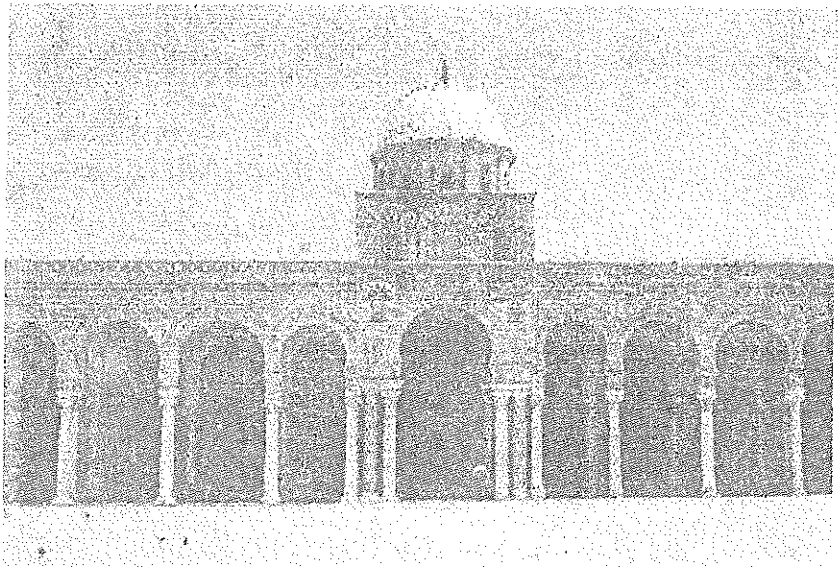

شكل رقم (1)

الأروقة تحيط بصحن المسجد، ولها أقواس مرفوعة على أعمدة ثنائية أو رباعية، وفي هذه الصورة نرى رواق بيت الصلاة المطلّ على ساحة الصحن، بجامع الزيتونة، تونس[4].

وأُلحق بكثير من المساجد غرفٌ للمؤذن والإمام، وغرفٌ لإيواء طلبة العلم، وتحفيظ القرآن، ومكتبة المسجد وغيره.

وفي الوطن العربي والإسلامي اليوم آلاف مؤلفة من المساجد، بعضها قديم وبعضها حديث العهد، وهي جميعًا تحوي تقريبًا ما ذكر، من حرم

4) تصوير الباحث سنة 1994 (بإذن من إدارة الجامع).

وقباب ومنابر ومحاريب وأماكن للوضوء، ومآذن، ولكنها تختلف بطراز بنائها، وتزيينها، ومحرابها، وشكل مآذنها، ويغلب على كل إقليم نظام معماري خاص يتأثر بالفنون المعمارية السائدة فيه[5].

ويرى الباحث أن يشير في هذه الدراسة إلى طراز عمارة المساجد في المغرب العربي – أي الطراز المغاربي، الذي يشمل منطقة شمال إفريقيا، وعلى الأخص الجماهيرية الليبية وتونس – هذا الطراز الذي لم يأت بجديد في تصميماته التي تتفق فيها أغلبية عمارة المساجد في المشرق أو المغرب الإسلامي، حيث إن أساسيات هذا التصميم هي: الصحن، والإيوانات، والجزء العريض المرتفع الذي يؤدي إلى المحراب في إيوان القبلة.

والمسجد بوجه عام في المغرب يمتاز بالآتي:

- صحن داخلي واسع تحفّ به العقود، كما يوجد في وسط الصحن فَسْقِيّة (شكل 2).

5) أنور الرفاعي، مصدر سابق، ص 62-63.

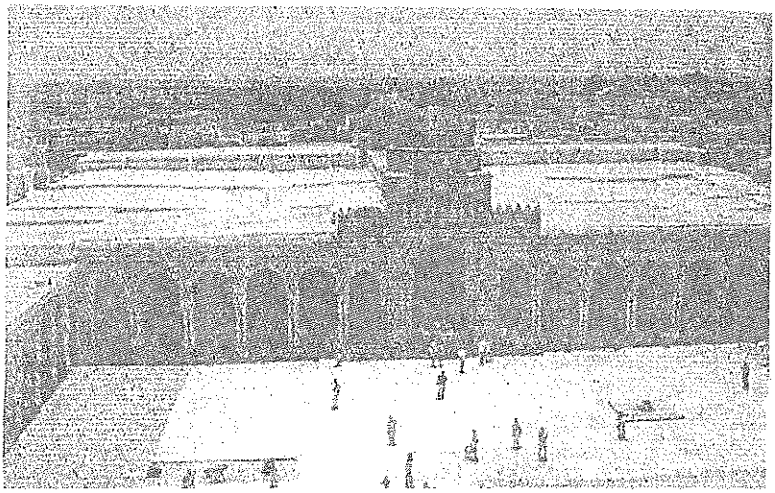

شكل رقم (2)

صحن واسع تحفّ به العقود من كل جانب، كما يلاحظ غطاء الفسقية (خزان المياه الأرضي) أحد مشتملات المسجد في كثير من الأحيان، الذي غالبا ما يعتمد على تجميع مياه الأمطار[6].

- يتبع المسجد في كثير من الأحيان مدرسة تعرف بـ«الزاوية»، كانت تُبنَى متصلة بالمسجد لتحفيظ القرآن وتعليم الفقه الديني.
- يتصل بعمارة المسجد أيضا – في كثير من المدن والقرى في المغرب العربي – إيوانٌ أو حجرة تعرَف بدار الضريح، وغالبًا ما يقترن اسم المسجد باسم صاحب هذا الضريح (شكل 3).

6) أخذت الصورة بتصريح من إدارة جامع القيروان،بتونس، 1994(تصوير الباحث).

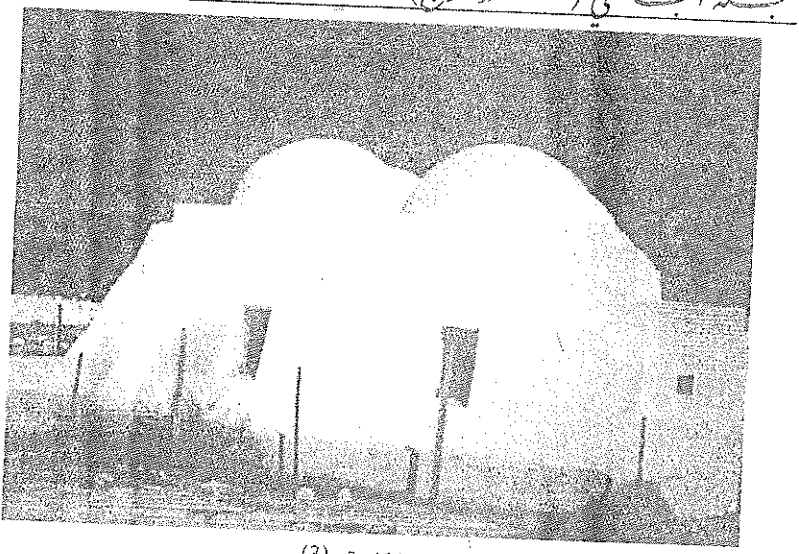

شكل رقم (3)

مسجد من الطراز المغاربي، اقترن اسمه باسم صاحب الضريح الذي بداخله، وهو مسجد « سيدي أحمد بحر السماح »، وما زال قائمًا بمدينة الزاوية-ليبيا. (تصوير الباحث)

والعمارة العربية بصفة عامة لها عناصر أساسية مجتمعة، وضعت فيها لمسة الذوق الفني، كما روعيت النِّسَب الجميلة المرتبطة بعضها ببعض، والتي كانت تُكوِّن في مجموعها الشكل المعماري ذا الطراز الإسلامي الأصيل[7].

وتتكون العمارة الإسلامية من عناصر أساسية تكوّن في مجموعها الطراز الإسلامي، هذه العناصر هي:

العقود بمختلف أنواعها، الأعمدة وتيجانها وقواعدها، القباب، المآذن أو المنارات، الشرفات القراميد الكوابل، المقرنصات، أشغال النجارة في الشبابيك والأبواب والمعلّقات الزخرفية، بما فيها من آيات قرآنية، أو حِلْيات

7) رمضان البشير المهدي، القيم النحتية من فنون العمارة الإسلامية، رسالة دكتوراة، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، 1995، ص 7.

هندسية ونباتية، وجميع الوحدات والعناصر التي تدخل في هذا الطراز[8].

وتميّزت فنون العمارة العربية الإسلامية بعناصر ساسيى، وهي العقود المحمّلة على أعمدة من الرخام أو الحجر، ففي تلك الفترة لم يكن علم هندسة الإنشاء المسلّح معروفًا بعد، ولذلك نجد تحميل الأسقف إما على عقود بأكتاف، أو عقود بأعمدة، أو قبوات أسفلها أكتاف، لتعطي درجة تحمّل كبيرة للأسقف، مع الحفاظ على الشكل المعماري وجمال الطراز والشكل.

وللعقود أنواع منها:

1. العقد الدائري ذو المركز الواحد.
2. العقد المرتد المدبب.
3. العقد ذو الفصوص.
4. العقد المخموس.
5. العقد الثلاثي.
6. العقد البصلي.
7. العقد المذبب.
8. العقد المذبب ذو المركزين.
9. العقد المركب.
10. العقد ذو المقرنصات.
11. العقد المزدوج.
12. العقد المتداخل[9].

ولتوضيح أكثر انظر الرسوم التوضيحية (الشكل 4).

8) عبد السلام نظيف، دراسات في العمارة الإسلامية، الهيئة العامة للكتاب، 1989ف، ص44، 46، 47.

9) عبد السلام نظيف، مرجع سابق، 44، 46، 47.

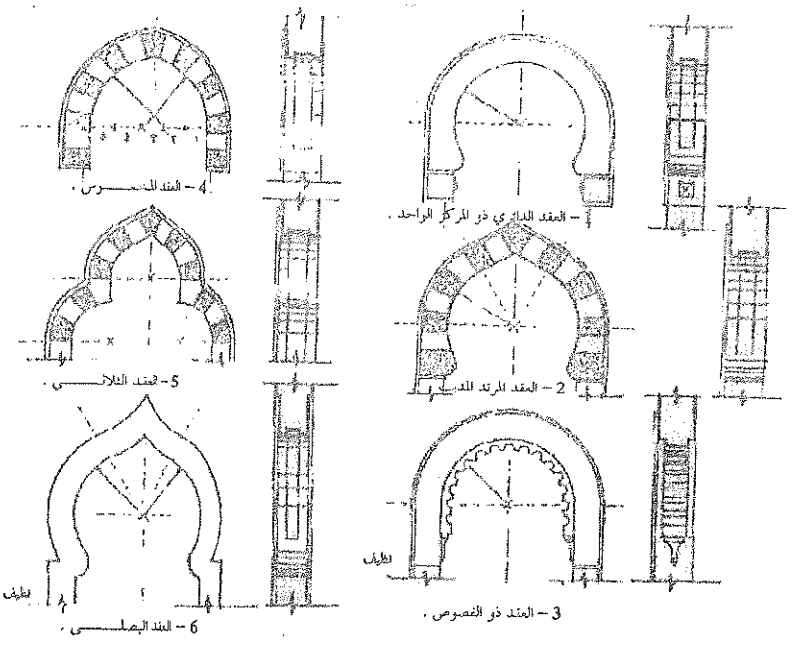

شكل رقم (4)

رسوم توضح بعض أنواع العقود التي امتازت بها فنون العمارة الإسلامية(10)

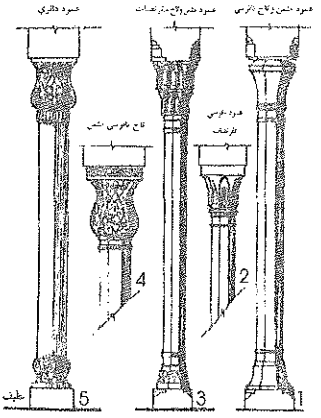

أما أنواع الأعمدة فهي:

1. عمود بدن مربع
2. عمود بدن دائري.
3. عمود بدن بقاعدة وتاج.
4. عمود بدن دائري، وتاج مورق (أندلسي)

10) أخذت عن عبد السلام نظيف مرجع سابق، ص 47-49.

5. عمود بدن مثمن وتاج (مقرنصات حطتين وقاعدة).

6. عمود بدن دائري بتاج ناقوس محلّى بمقرنصات.

وهذا الرسم التوضيحي لبعض من أهم أنواع الأعمدة وقواعدها وتيجانها المختلفة، وهي أساس ترتكز عليها العقود الحاملة للسقف.

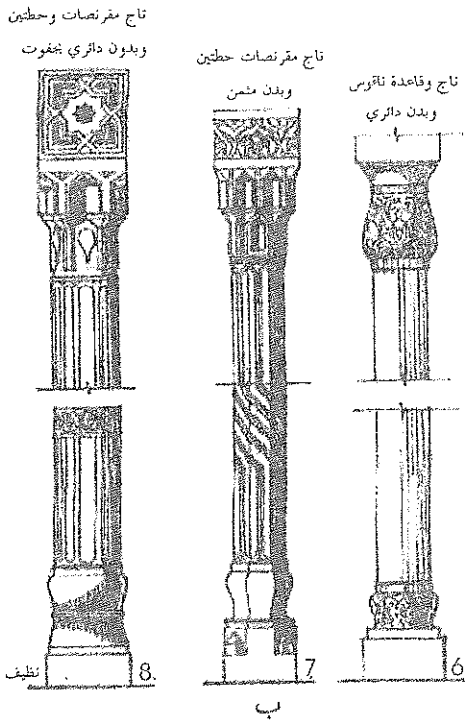

شكل رقم (15، ب)

نماذج تيجان وقواعد أعمدة

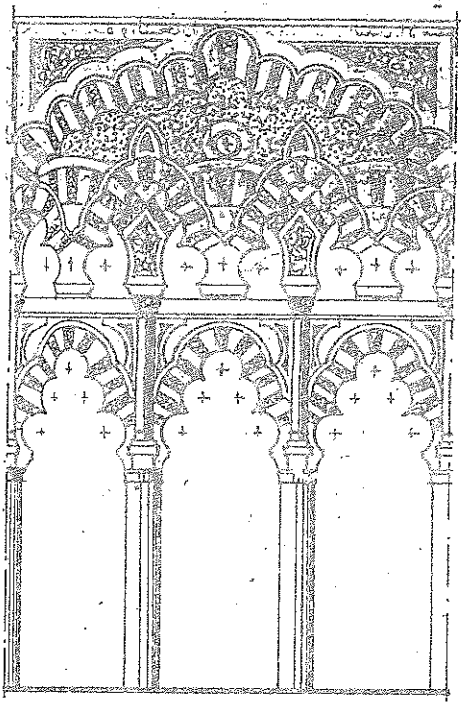

شكل رقم (6)

من أنواع العقود، العقود المتداخلة، وتعرف بعقود الفصوص، تحمل على أعمدة سميكة قوية، ثم تأتي فوقها أعمدة رفيعة تحمل عقودًا دائرية.

لاحظ العلاقات التشكيلية الهندسية التي أبدع تصميمها المهندس الفنان(11)

وتعتبر القباب والمآذن من العناصر الأساسية أيضًا التي تميّزت بها عمارة المساجد المشرقية والمغربية الطراز، تفنن المعماريّ الإسلامي في هندستها الإنشائية والجمالية، وعلاقتها العضوية ببقية العناصر والشكل العام والفراغ.

11) أخذت عن: المسجد الجامع بقرطبة، عبد السلام أحمد نظيف: دراسات في العمارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989، ص 57.

ومن هذه القباب أنواع منها:

أ- النصف كروي.

ب- الشكل البيضاوي.

ج- الشكل البصلي.

د- الشكل البصلي المضلع.

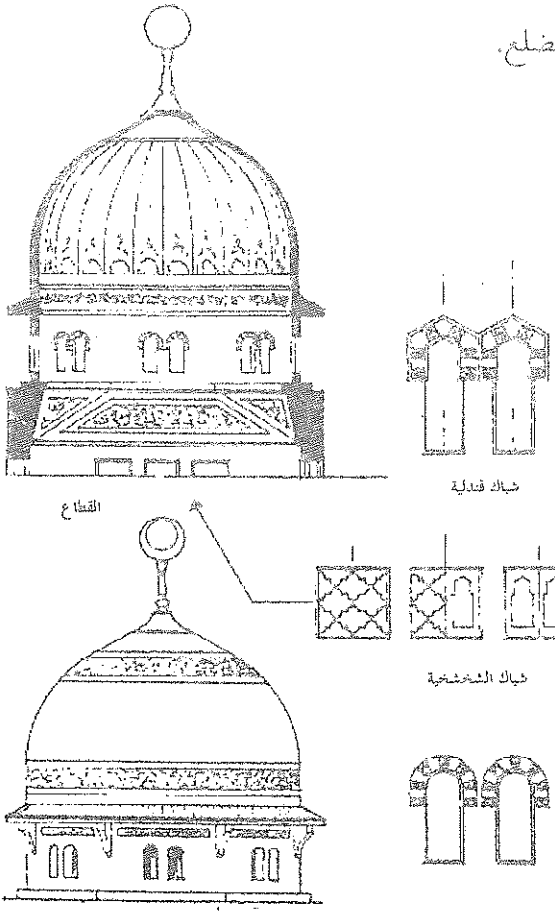

شكل رقم (7)
نموذج عام لقبة مسجد تحمل القيم والنمط المعماري الإسلامي، فيها التناسق والاتزان، مما يجعلها من الأعمال الفنية التي تسترعي النظر من جمال التشكيل والبناء[12].

12) أخذت عن: عبد السلام، مرجع سابق، ص 95.

ويرى الباحث أن العمارة العربية الإسلامية - بصفة عامة — تزخر بالكثير من الجماليات والأشكال المجسّمة، ذات العلاقة بالمعمار، التي تستحق الدراسة والبحث في تصميماتها المختلفة، والتي تتفق مع وظائفها الدينية والدنيوية.

ومما يشجع على الدراسة في هذا المجال، وجود نماذج من العمارة الإسلامية قائمة حتى الآن، وهي نماذج مبكّرة لفنون العمارة الإسلامية، وهي تاريخ مرئيٌّ قائم، مما يساعد على تأكيد الحقائق والشواهد البحثية، التي تُثْري الدراسة نفسها، مما يزيد في مصداقية التوثيق البحثي[13].

وخير مثال على ذلك ما تزخر به منطقة شمال إفريقيا في كل من مصر، والجماهيرية، وتونس، حيث ما زالت مساجد الفتح العربي الإسلامي قائمة إلى الآن، مثل مسجد عمرو بن العاص في الفُسْطاط بمصر، وجامعي القيروان والزيتونة بالجمهورية التونسية، هذا ومع اعتبار جامع الناقة من الطراز المبكر، الذي مازال قائمًا أيضا بمدينة طرابلس.

وبذلك يقدم الباحث نبذة مبسّطة عن كلٍّ من جامع القيروان والزيتونة، وجامع الناقة.

13) رمضان البشير المهدي، مرجع سابق، ص 10.

أولا: جـــامع القيروان

ويعرف بـــ«جامع سيدي عُقْبة»، بناه عُقْبَة بن نافع عندما خط مدينة القيروان – بالجمهورية التونسية الآن – (سنة 50 هـ = 670م)، ثم هُدِم وأعيد بناؤه سنة 76 هـ، وزِيد في مساحته، بأمر هشام بن عبد الملك سنة 105 هـ، ويمتاز هذا المسجد بأعمدته وتيجانه التي نقلها العرب من أنقاض أبنية قديمة، واستعملوها في رفع سقوفه وأبعاده الآن تقرب من أبعاد المسجد الأموي بدمشق، إذ يبلغ طوله 135 مترًا، وعرضه 80 مترًا، وفي المصلَّى منه سبعة عشر بهوًا توازي محوره الأساسي[14].

انظر الصورة (شكل 2) صفحة 239 من هذا البحث.

14) أنور الرفاعي، مرجع سابق، ص 76.

ثانيا: جامع الزيتونة

وهو رابع جوامع القارة الإفريقية في زمان الفتح الإسلامي، حيث أنشئ عام 21 هـ جامع الفسطاط بمصر، وجامع عمرو بن العاص بطرابلس عام 22 هـ، وجامع عقبة بن نافع عام 51 هـ، وجامع الزيتونة عام 76 هـ، وفي مرجع آخر أنشئ عام 144 هـ=732م.

والصحيح حسب وجهة نظر الباحث: أن الشيخ عبد العزيز بن عاشور الذي أورد في كتابه «جامع الزيتونة المعلم ورجاله» أن تاريخ إنشاء هذا الجامع عام 76 هـ، أسسه وبناه القائد العربي حسان بن النعمان الغَسّاني، وليس كما ورد ببعض المصادر بأنه بناه عبد الله بن الحبحاب عام 114 هـ، وقد يكون هذا التاريخ تَمّ فيه إعادة التخطيط والبناء.

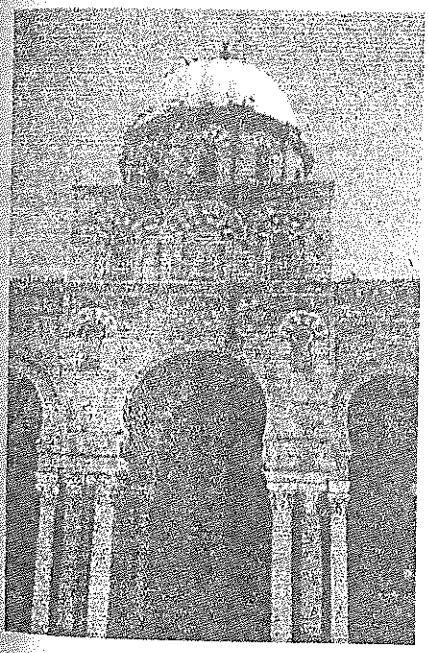

المدخل الرئيسي لجامع الزيتونة، الذي يتوسط رواق بيت الصلاة، تعلوه قبة المدخل المضلعة البيضاء الجميلة، تتعانق مع زرقة السماء، وترتبط رأسية بالأرض من خلال أعمدة الرخام تحت العقود.

إنه بحق تنسيق جمالي قمة الإبداع، ومحاورة موسيقية، جميلة في إيقاع نغماتها.

(شكل رقم 8)

(تصوير الباحث 1994)

ثالثا: جامع الناقة

من أهم المساجد في مدينة طرابلس من الناحية التاريخية والعمرانية، حيث إنه يعتبر من المساجد العتيقة في منطقة شمال إفريقيا، الذي مازال بشكله المعماري وطرازه الإسلامي المبكر الإنشاء، وقد أشار إليه أحد الباحثين بمجلة آثار العرب، فذكر «وهو أعظم مساجد مدينة طرابلس، يسمى بالجامع الأعظم، وتذكر المصادر التاريخية أن إنشاءه تم على يد الفاطميين، فقد ذكر التيجاني عند زيارته لطرابلس 1306-1308 بأنه بين القصبة والمدرسة المستنصرية، جامع طرابلس الأعظم، الذي بناه بنو عُبَيْد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار متسع مرتفع قائم من الأرض، على أعمدة مستديرة»[15].

إن الداخل إلى بيت الصلاة بمسجد الناقة – في وقتنا الحاضر – يلاحظ أن أعمدة وتيجان هذا المسجد لها طراز وتشكيلات مختلفة، كما يلاحظ قِصَر الأعمدة ودنوّ السقف والعقود من الأرض، بعكس الوصف الذي سبق الإشارة إليه.

15) آثار العرب، مجلة متخصصة تصدر عن مصلحة الآثار، طرابلس ليبيا، العدد السادس، مارس 1993ف.

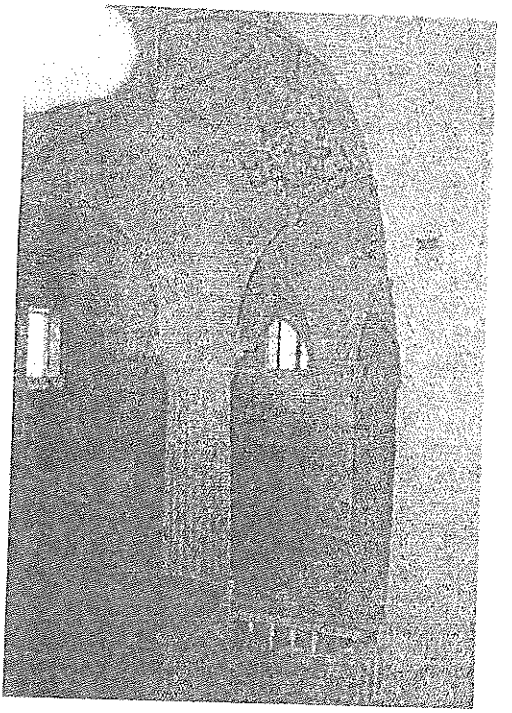

شكل رقم (19)

صورة من داخل بيت الصلاة بجامع الناقة، الذي يعتبر من أهم المساجد القديمة بمدينة طرابلس-الجماهيرية، وهو من الطراز المعماري المغربي المتميّز في منطقة شمال غرب إفريقيا.

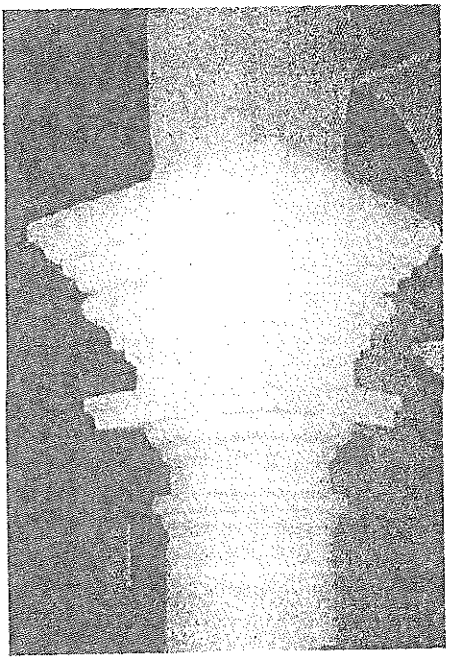

شكل رقم (9 ب)

صورة تاج عمود من أعمدة بيت الصلاة بجامع الناقة، والذي تجد فيه أكثر من طراز من الأعمدة والتيجان المختلفة، مما يدل على أنها جُمِعَتْ من مناطق مختلفة أيضًا[16].

وهذا يفسره الباحث بأن أعمال الصيانة المتوالية عبر السنين، وعمليات الرّدم، وارتفاع منسوب شوارع المدينة القديمة وأزقتها، بسبب أعمال والصيانة أيضا، كان من الضروري أن ترتفع أرضية هذا المسجد، والدليل على ذلك مداخل أبوابه الرئيسة، وعقودها التي تكاد تمس رؤوس الداخلين إلى بيت الصلاة، كما أن الداخل، عليه أن يتخطى درجتين أو ثلاث درجات نزولا، حتى يصل إلى أرضية بيت الصلاة.

16) تصوير الباحث، 1993 ف.

مراجع البحث

1- أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العربي والمسلمين، دار الفكر، 1977ف.

2- ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1981ف.

3- توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج 3، 1970ف.

4- رمضان البشير المهدي، القيم النحتية في مختارات من فنون العمارة الإسلامية، كلية التربية، جامعة حلوان – القاهرة، مصر، 1995ف، رسالة دكتوراة.

5- عبد السلام أحمد نظيف، دراسات في العمارة الإسلامية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1989ف.

6- آثار العرب، طرابلس-ليبيا، مصلحة الآثار، العدد السادس، مارس 1993ف.